

المرآة والقناع

خورخي لويس بورخيس

Jorge Luis Borges

كانت معركة كلونطارف **Clontarf** التي ذل فيها النرويجي قد بدأت. تحدث الملك السامي مع الشاعر وقال له:

- إن الانتصارات الأكثر وضوحاً تفقد بريقها إذا لم يتم سكها في كلمات. أريدك أن تغني انتصاراتي وأن تمدحني. سأكون أنا إنياس وستكون أنت فيرجيلوسي **Virgilios**. أتظن أنك قادر على هذه المغامرة؟

- نعم أيها الملك - قال الشاعر - فأنا أوليان **Ollan** درست خلال اثني عشرة شتاء كل فروع العروض. أحفظ عن ظهر قلب الثلاثمائة وستون أسطورة التي هي عماد الشعر الحقيقي. ملاحم أو لستر **ulster** ومونستر **Munster** كلها في أوتار قيثارتي والقواعد تسمح لي باستعمال أكثر الألفاظ قدماً وأكثر الاستعارات تعقيداً. أجيد الكتابة السرية التي تصون فنا من الممارسات العامة المتطفلة. يمكنني أن أتغنى بالحب وبالنهب، بالإبحار وبال حرب. أعرف الأنساب الأسطورية لكل العائلات الملكية الأيرلندية. وأعرف خاصيات الأعشاب وعلم التنجيم القضائي، الرياضيات والقانون الكنسي. أجيد أيضاً الهجاء الذي يسبب الأمراض الجلدية بل حتى الجذام. وأتقن حمل السيف كما أظهرت في معركتك. أجهل شيئاً واحداً فقط: شكركم على الهبة التي منحتموني إياها.

قال الملك الذي تتعبه خطب الآخرين الطويلة:

- أعرف جيداً هذه الأشياء. قالوا لي منذ حين أن العندليب قد غرد في إنجلترا. وحين تنتهي الأمطار والثلوج، ويعود العندليب من أراضيه الجنوبية ستنشد قصيدتك أمام الحاشية وأمام مجلس الشعراء. أمنحك سنة كاملة لصقل كل حرف وكل كلمة. المكافأة كما تعلم، ستليق بمنزلتي كملك وبالهام لياليك.

- إن أكبر مكافأة أيها الملك هي النظر في وجهك العزيز - قال الشاعر الوصيف.

حيى وانصرف وهو يداعب ربما أول بيت من القصيدة. وحين وصل الأجل الذي كان مليئاً بالأوبئة والثورات قدم مدحيته وقرأها بثقة بطيئة وبدون أن ينظر إلى مخطوطته. كان الملك يحرك رأسه

علامة على الاستحسان والجميع يقلدون حركته حتى الدين
تكسوا في الأبواب والذين لم يفهموا أية كلمة. وفي الأخير تكلم
الملك:

- أقبل عملك هذا. إنه انتصار آخر. لقد أعطيت لكل لفظ معناه
الأصيل ولكل إسم الصفة التي أعطاه إياه الشعراء الأولون.
لاتوجد في القصيدة صورة واحدة لم يستعملها الأقدمون.
فالحرب نسيج جميل من الرجال وماء الحسام دم. البحر له إله
والغيوم تبشر بالغيب. استعملت القافية والجناس بمهارة
والسجع والمد وكل المحسنات البلاغية. تغيير الإيقاعات كان
حكيماً. إذا اندثرت كل الآداب الأيرلندية - حشى لله - يمكننا
إعادة بنائها بدون أي نقصان من خلال قصيدتك الكلاسيكية
هذه. ثلاثون من الكتب سينسخونها اثني عشر مرة.
خيم الصمت وتابع:

- كل شيء على مايرام ومع ذلك لم يحدث أي شيء. الدم لم
يجر في العروق بسرعة أكبر، والأيدي لم تبحث عن الأقواس
والنبال ولم يمتقع أحد ولاصرخ أحد صرخة قتال، ولاأحد تصدى
للفيدكنغ. خلال أجل مدته سنة سنصفق ثانية لقصيدة أخرى
أيها الشاعر. وكدليل على رضانا خذ هذه المرأة الفضية.
- أشكركم وأفهم قصدكم

كررت نجوم السماء سيرها الواضح. غرد العندليب ثانية في
الأدغال السكسونية فعاد الشاعر بقرطاسه، كان أقل طولاً من
الأول. لم يستظهره؛ قرأه بعدم ثقة واضح، قافزاً على بعض
المقاطع كما لو أنه هو نفسه لم يفهمها تماماً أو كأنه لم يرد أن
يدنسها. كانت الصفحة غريبة. لم تكن وصفاً للمعركة، كانت هي
المعركة. ففي فوضاها الحربية يهيج الرب الذي هو ثلاثة وهو
الواحد، الأرقام الأيرلندية الوثنية وكل الذي سيقاتلون مئات
السنين بعد ذلك في بداية العهد العظيم. والشكل أيضاً لم يكن
أقل غرابة. الاسم المفرد يمكن أن يعمل في فعل في صيغة
الجمع وحروف الجر لم تعد خاضعة للقوانين المعروفة. الخشونة
تتناوب مع الليونة والاستعارات كانت اعتباطية أو تبدو كذلك.
تبادل الملك بضعة كلمات مع رجال الأدب الذين يحيطون به
وتحدث بهذا الشكل:

- عن قصيدتك الأولى قلت أنها كانت خلاصة لكل الأناشيد الأيرلندية. هذه تتجاوز كل ما قبلها وتنسفه أيضاً، إنها مشوقة، رائعة ومذهلة. لن يستحقها الجهلة بل العلماء القلائل. صندوق من العاج سيحفظ هذه النسخة الفريدة.
- من القلم الذي أبدع هذا العمل الكبير يمكننا أن ننتظر عملاً أجمل منه. وأضاف مبتسماً:
- نحن شخوص في حكاية ومن العدل أن نذكر أن الرقم ثلاثة سيد الحكايات.
- تجراً الشاعر على الهمس:
- هبات الساحر الثلاث، الثالوثات والثالوث المقدس الذي لا ريب فيه.
- وتابع الملك:
- كشهادة على إعجابنا خذ هذا القناع الذهبي.
- أشكركم، فقد فهمت القصد.
- حلت الذكرى السنوية. أعلن حراس القصر أن الشاعر لا يحمل معه أية مخطوطة. نظر إليه الملك بدهشة بادية. كان شخصاً آخر تقريباً. شيء، لم يكن الزمن، حفر ملامحه وغيرها. عيناه تبدوان وكأنهما تنظران بعيداً أو كأنهما أصبحتا عمياء.
- طلب منه الشاعر كلمة على انفراد. انسحب العبيد من الديوان.
- ألم تنفذ القصيدة؟ سأل الملك.
- بلى، قال الشاعر، ليت المسيح سيدنا منعني عن ذلك.
- هل يمكنك قراءتها؟
- لأجرؤ على ذلك.
- أمنحك الشجاعة التي تنقصك - أعلن الملك -.
- قال الشاعر القصيدة. كانت سطرًا واحداً. بدون أن يتجرأ على نطقها بصوت مرتفع، كان الشاعر وملكه يتذوقانها كما لو كانت صلاة سرية أو تجديفًا. لم يمكن الملك أقل دهشة أو أقل رثاء من الآخر. نظرا إلى بعضيهما شاحبين.
- في أيام شبابي - قال الملك - أبحرت في اتجاه المغرب، وفي إحدى الجزر رأيت كلاباً من فضة تفترس خنازير برية من ذهب وفي جزيرة أخرى اقتتنا من طيب التفاح السحري. وفي واحدة أخرى شاهدت أسواراً من نار، وفي أبعدها رأيت نهراً مقوساً

ومعلقاً يخترق السماء وفي مياهه تسير أسماك ومراكب. هذه عجائب لكنها لاتقارن بقصيدتك التي تحويها بشكل أو بآخر. أي سحر ألهمك إياها؟

- في الفجر - قال الشاعر - استيقظت مردداً بعض الكلمات التي لم أفهم معناها في البداية. هذه الكلمات قصيدة. أحسست أنني ارتكبت إثماً، ذلك الإثم الذي لاتغفره ربما الروح القدس.
- الإثم الذي نتقاسمه الآن - همس الملك - أعني معرفتنا للجمال الذي هو هبة محظورة على البشر. والآن علينا أن نكفر عنه. أعطيتك مرآة وقناعاً من ذهب، والآن خذ هذه الهدية التي ستكون الأخيرة.

وضع في يمينه خنجراً.
عن الشاعر نعرف أنه قتل نفسه حينما خرج من القصر، وعن الملك نعرف أنه أصبح شحاذاً يجوب طرقات أيرلندا التي كانت مملكته وأنه لم يردد القصيدة قط.

كتاب الرمل (1975) ص 68-73